بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل هذه المادة من:

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

http://kotob.has.it

http://www.al-maktabeh.com

لفظتا (عاقر) و (عقيم)

ودلالتهما اللغوية في القرآن الكريم

د. عبدالرحمن بن حسن العارف

جامعة أم القرى

لفظتا (عاقر) و(عقيم)
ودلالتهما اللغوية في القرآن الكريم

نعمة الإنجاب نعمةٌ لا يعادلها شيءٌ في حياة الإنسان ذكراً كان أم أنثى. وقد امتن الله على عباده بذلك، وجعلها آيةً من آياته الدالة على قدرته، وهبةً من هباته لعباده. يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1]،

ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾[2]،

ويقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ...﴾[3]

والتناسل سنة الله التي قامت عليها الخليقة بدءاً بآدم-عليه السلام- وابنيه «قابيل» و«هابيل»، بل هو سنة الله في جميع المخلوقات التي ذرأها في هذا الكون، ولذا عُدَّ هو الأصل، وما عداه خارجٌ عليه.

ولو تأملنا الأنبياء-عليهم السلام- لوجدنا أن أكثرهم قد رُزِقَ بالبنين والبنات، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً...﴾[4]، ولم تذكر المرويات التاريخية من الأنبياء الذين لم

---

(١) سورة النحل، الآية ٧٢.

(٢) سورة الروم، الآية ٢١. وقد فُسِّرت الرحمة هنا عند ابن عباس ومجاهد والحسن بأنها الولد، أو الإنجاب بصفة عامة، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١٤/١٧)

(٣) سورة الشورى: الآيتان: (٤٩-٥٠)

(٤) سورة الرعد، الآية ٣٨

يُرزقوا بأبناء سوى عيس ويحيى -عليهما السلام-[1].

وقد حثّ الإسلام على التناكح، والتناسل، والإنجاب، والسعي للحصلو على الولد. فقال عليه الصلاة والسلام: (تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثرٌ بكم الأمم)[2] ، وقال : (لا تَزَوَّجُنّ عاقراً، فإني مكاثرٌ بكم)[3]

ولذا فإن الرغبة في الأمومة والأبوّة تُعَدُّ من المظاهر الفطرية عند الإنسان، ومن مظاهر غريزة النوع لديه بشكل عام، فهي مركوزةٌ في جبلّته، ذاتيةٌ في كيانه.

وقد استوقفني في القرآن الكريم -وما أكثر ما استوقفني فيه- ورود لفظتيَن تدوران في هذا الإطار-أعني الإنجاب- ، ولكن في الوجه المضاد له سلباً، وهما لفظتا (عاقر) و(عقيم)، فرأيت أن أخُصَّهما بدراسة أسلوبية لُغوية، تتتَّبع مواضع ومواقع ورودهما في القرآن ، وتتأمل في استعمال النصّ أو الأسلوب القرآني لهما، وما فيهما من قيم صوتية ودلالية، سواء أكان ذلك على مستوى المفردة القرآنية، انتقاءً واختياراً لها دون سواها، أم على مستوى التراكيب القرآنية، خُصُوصيةً وترخُّصاً.

وقد وردت هاتان اللفظتان في مواضع متعددة من القرآن الكريم، بلغت سبعة مواضع[4]، منها ثلاثة مواضع للفظة(عاقر)، أولها في وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ. .﴾[5]

---

(١) ينظر : تفسير القرطبي(١٦/ ٤٩)، الكشاف ، للزمخشري(٤/ ١٨٣).

(٢) أخرجه النسائي في سننه(٦/ ٦٥-٦٦)(كتاب النكاح - كراهية تزويج العقيم)، رواه أبو داود في السنن(٢/ ٥٤٢)(كتاب النكاح -٤-، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم/ ٢٠٤٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٣/ ٢٧٣)، ينظر: غريب الحديث، لأبي إسحاق الحربي (٣/ ٩٩٦).

(٤) اعتمدت في حصر هذه المواضع على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص٤٦٨و ٤٦٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٠

والموضعان الآخران هما قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[2].

وأربعة مواضع للفظة (عقيم)، أولها قوله تعالى: ﴿...حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[3]، وثانيهما قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[4] ، وثالثها قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[5]، ورابعها قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[6]

وهذه المواضع السبعة منها خمسةٌ متصلةٌ بالمعنى الاصطلاحي لهاتين اللفظتين، وهو عدم إمكانية الإنجاب، أمّا الموضعان الآخران فيدوران حول الجذر اللغوي لمادة(عقم)، مما يعني أن لفظة(عاقر) جاء استخدامها في القرآن بالمعنى الاصطلاحي لها، أما لفظة(عقيم) فقد استُخدِمَتْ في المعنى اللغوي لها، وفي المعني الاصطلاحي أيضاً. على أنه ينبغي التنويه إلى أن الجذر اللغوي للفظة(عاقر) لم يكن القرآن خِلواً منه، فقد ورد في خمسة مواضع [7] ، كلها جاءت بصيغة الفعل (عقر)، حديثاً عن قوم صالح -عليه السلام- ، وما صنعوه في آية الله التي أرسلها إليهم وهي الناقة.

فأمّا لفظة (عاقر) ومواضعها الثلاثة في القرآن الكريم، فقد وردت على لسان نبي الله زكريا -عليه السلام- حينما بُشِّر بحمل زوجه منه ، وولادة يحيى -عليه السلام- له ، على كِبَرٍ منه وعُقْر فيها، أو على

(١) سورة مريم : الآية ٥
(٢) سورة مريم : الآية ٨
(٣) سورة الحج : الآية ٥٥
(٤) سورة الذاريات : الآية ٢٩
(٥) سورة الذاريات: الآية ٤١
(٦) سورة الشورى: الآية ٥٠
(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٤٦٨.

شيخوخة فيه وداء فيها، وكلتاهما صفتان أو حالتان تحولان دون الحمل والولادة، أو الإنجاب بصفة عامة.

وبتتبُّع المواضع الثلاثة التي وردت فيها لفظة(عاقر) ، نجد أن القرآن أشار في موضع واحد منها إلى العُقْر مباشرة، واستخدم عبارة ﴿وَامْرَأَتِي﴾، وهنا لم يُبيِّنْ هل كان العُقْر أيام شباب زوج زكريا أو حدث لها في فترة متأخرة من حياتها؟ والتعبير هنا بالجملة الاسمية يدل على أن كونها عاقراً وصفٌ لازمٌ لها، وليس أمراً طارئاً عليها.[1]

أما الموضعان الآخران فقد استخدم القرآن فيهما عبارة﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ ، مما يدل على أنها كانت عاقراً قبل كبرها. والتعبير بـ﴿كَانَت﴾ يدل -كما يذكر ابن الجوزي- على أحد شيئين: إمَّا للتوكيد، أي وهي عاقر، وإمَّا لإفادة أنها كانت منذ كانت عاقراً، ولم يحدث لها العُقْر في الكِبَر.[2]

وشيءٌ آخر ، أن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ. .﴾[3]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[4].

ذكراً لسببين مانعين من الإنجاب وهما: كِبَرُ سن الزوج، وعُقْر الزوجة، ولكنه في الموضع الثالث اكتفى بذكر سبب واحد يحول دون الإنجاب ، وهو عُقْر الزوجة، وفي هذا ما يدل على أن زكريا-عليه السلام- «كان يعرف من نفسه أنه لم يكن عاقراً، ولذلك ذكر الكِبَر ولم

---

(١) روح المعاني، للألوسي(٣/ ١٤٩)، (٨/ ٦٢).

(٢) زاد المسير، لابن الجوزي(٥/ ٢١١). وينظر: أضواء البيان، للشنقيطي(١/ ٢٤٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٠

(٤) سورة مريم : الآية ٨

يذكر العُقْر»[1].

ويستوقفنا في هذين الموضعين -أيضاً- أن القرآن قدَّم في «آل عمران» على لسان زكريا كِبَرُ سِنّه وأخَّر عُقْر زوجه، ولكنه قدَّم في «مريم» عُقْر زوجه، وأخَّر كِبَرَ سنه! ، ومثل هذا التقديم والتأخير حَفِيٌّ بالنظر والتأمل، والتماس وجهه البلاغي. وقد ذكر بعض العلماء تعليلاً لذلك فقالوا: لكي تتناسب رؤوس الآي في «مريم» بقوله: عتياً ، ولياً، رضياً، وعشياً . . . إلخ، وأيضاً لما قدَّمه أولاً بقوله: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ و﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ آخَّره ثانياً، تفنُّناً في الفصاحة.[2] على أنني ألمس شيئاً آخر غير ما ذكر في التقديم والتأخير هنا، وهو أن العُقْر يُعَدُّ السبب الرئيس في عدم حدوث الإنجاب، أما كِبَر السن فليس فيه -في الغالب- ما يحول دون ذلك، فقد ينجب الرجل وهو في سنٍّ متقدمة من العمر ، أما المرأة فتقلُّ -أو تنعدم- فرص إنجابها إذا تجاوزت سناً معينة، وذلك حينما ينقطع عنها دم الحيض وتصبح يائساً، وهذا ما أيَّده الطب الحديث. ولذلك اكتفى القرآن في موضع من هذه المواضع الثلاثة بذكر عُقْر المرأة، سبباً وحيداً لعدم إمكانية الإنجاب -كما تقدم-. وإذا كان هناك من العلماء من ذكر أن العاقر من النساء هي التي لا تلد لكبر سنِّها[3]، وكأنه يجعل كبر السن سبباً للعُقْر، فإن هناك منهم -أيضاً- من يُفسر العاقر من النساء بأنها هي التي لا تلد من غير كبر[4]، وكأنه يَعدُّ العُقْر غايةً لا سبباً، أي أنه ينظر إلى العُقْر على أنه داءٌ مطلقٌ في ذاته، دون تحديد بكبر سنٍّ أو غيره، وهذا ما أميل إلى القول به.

---

(١) روح المعاني (٨/ ٦٧)

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة، ص(١٢٧-١٢٨) . وينظر : الدر المصون، للسمين الحلبي(٣/ ١٥٩)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لأبي يحيى زكريا الأنصاري، ص٨٥، روح المعاني (٨/ ٦٦-٦٧).

(٣) ينظر : تفسير القرطبي(١١/ ٧٩)

(٤) نفسه.

ثم إن في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ﴾ إسناداً مجازياً[1] لبلوغ الكِبَر إياه، بمعنى أن الكِبَر هو الذي بلغ زكريا، ولم يقل على الحقيقة«وقد بلغت الكِبَر»، وهذا من باب التوسُّع في الكلام. والتعبير هنا بالجملة الفعلية يدل على أن«الكِبَر يتجدد شيئاً فشيئاً، ولم يكن وصفاً لازماً»[2]. ويلاحظ في هذه الآية أنه لم يبين القدر الذي بلغه الكِبَر منه ، ولكنه في آية أخرى حدَّد ذلك القدر وهو العِتِيّ، الذي يعني الغاية(النهاية) في الكِبَر، واليُبْسَ، والجفافَ في العظام والمفاصل.[3]

ومما يستوقفنا في هذا المقام هو مدى التشابه الحاصل بين يحيى-ابن زكريا- وعيسى- عليهما السلام- في المعجزة التي كانت لكليهما. فمعجزة يحيى أنه بشارة الله على لسان الملائكة ، أو جبريل -عليه السلام- وحده، لأبيه وأمّه، اللّذَين كانا على حالة تحول دون الإنجاب، فأبوه زكريا -عليه السلام- بلغ من العمر أرذله، حيث ذكر المفسرون أنه يوم بُشِّر بيحيى كان ابن تسعين سنة، وقيل: عشرين ومائة سنة[4]، وأما أمه[5]، فكانت كما ذكر القرآن -عاقراً لا تلد، ولهذا فمجيئه إلى الدنيا على كِبَر سن أبيه وعُقْر أمّه معجزةٌ من المعجزات.

وأما معجزة عيسى فقد كانت أيضاً-بشارة الله به لأمّه مريم التي كانت عذراء لم تُنكح من قبل، فمجيئه إلى الدنيا من غير أب معجزةٌ وأيُّ

---

(١) الإسناد المجازي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له، بقرينة تصرفه عن إرادة الظاهر. ويطلق عليه عبدالقاهر الجرجاني مصطلح المجاز العقلي أو الحكمي. للمزيد ينظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د.احمد سعد محمد ، ص٣٨٠ فما بعدها.

(٢) روح المعاني(٣/١٤٩).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي(١١/٨٣)، اضواء البيان، للشنقيطي(١/٢٤٣-٢٤٤).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (٤/٧٩).

(٥) قيل: إن أمه هي إيشاع بنت فاقود ابن قبيل، وقيل:إنها إيشاع بنت عمران، وعلى هذا القول تكون أمّه أختاً لمريم -أمّ موسى- ، ومن ثمَّ يكون يحيى وعيسى ابني خالة.

معجزة. ومن أجل هذا التوافق في المعجزة والتشابه في الظروف ، لا يجيء القرآن «بذكر مولد يحيى إلا ويُعقبه بذكر مولد عيسى، يُمهّد لإعجاز بإعجاز، فكلتا الولادتين آية تنقطع دونها رقاب البشر»[1].

يقول الله تعالى عن زكريا ويحيى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[2]، ويقول عن مريم وعيسى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . . .﴾[3]

ولابد لنا-ونحن نستلهم الدلالات اللغوية من خلال خصوصية العبارة القرآنية-أن نتوقف قليلاً عند استخدام النص القرآني لبعض الألفاظ، وإيثاره لها دون بعضها الآخر في الآيات السابقة، وبخاصة تعبيرهُ في الرد على زكريا حينما تعجب من مجى ابن له وهو وزوجه على ما تقدم من حال، وذلك بقوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . . .﴾، حيث عبَّر عن تلك المعجزة بالفعْل. وكذلك تعبيره في الرد على مريم حينما تعجبت من مجيء ابن لها دون أن يمسَّها بشر بقوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . . .﴾، فهنا عبَّر عن هذه المعجزة بالخلق.

ويبدو لي -والله أعلم- أن معجزة يحيى كانت معجزة فعْل-إن صَحَّ التعبير- لشيء هو كائن أصلاً ، أما معجزة عيسى فمعجزة خلق لشيء غير كائن أصلاً.

---

(١) من إعجاز القرآن(٢/ ٢٢٨).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٣٩-٤٠

(٣) سورة آل عمران: الآيات ٤٥-٤٧

وبيان ذلك أن ولادة يحيى تَّمت بعد أن وجد طرفا الإنجاب، الأب والأم، وانتفت -بمشيئة الله وقدرته- أسباب عدم الإنجاب: كِبَر سن الأب، وعُقْر رَحِمِ الزوجة، فالمعجزة إذن كانت في شفاء داء الزوج، وإصلاح ما فسد من أعضاء الحمل في الزوجة، كما عبَّر القرآن بذلك فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ...﴾[1]

فالإصلاح هنا -كما قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين -هو أنها «كانت عاقراً فَجُعلَتْ ولوداً»[2] ، أو كما يقول الفرَّاء: «إنها كانت عقيماً فجعلناها تلد، فذلك صلاحها»[3] ، أو كما يقول أحد المعاصرين: «استحيينا فيها وهي العجوز العاقر آلة الحمل والولادة»[4] ، ولذا كان الأنسب أن تُذكر المعجزة على هذه الصفة مقرونةً بالفعل ﴿يَفْعَلُ﴾.

أما ولادة عيسى -عليه السلام- فجاءت دون توفُّر أحد طرفي المعادلة في الإنجاب، وهو الأب، حيث لم تكن الأمُّ متزوجةً قط ، فالمعجزة إذن كانت في الخلق ، وهو من الوجهة اللغوية والعلمية «إنشاءٌ لشيء ابتداءً، أي إيجاده من عدم»[5]

---

(١) الأنبياء (٨٩-٩٠)

(٢) ينظر : تفسير القرطبي(١١/٣٣٦)، الكشاف (٣/١٠٤)، زاد المسير(٥/٣٨٤)

(٣) معاني القرآن (٢/٢٠١)، وهناك تفسيرٌ آخر للإصلاح هنا وهو أنها كانت سيئة الخُلُق ، طويلة اللسان ، فاصلحها الله فجعلها حسنة الخُلُق. وقد جمع القرطبي بين المعنيين على سبيل الاحتمال. ينظر: تفسير القرطبي (١١/٣٣٦)، وعلى المعنيين يتوقف التوجيه الإعرابي (النحوي)للعطف في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾. ينظر : روح المعاني(٩/٨٧).

(٤) من إعجاز القرآن (٢/٢٢٨)

(٥) أطفال الأنابيب بين العلم والشريعة، زياد أحمد سلامة، ص١٤. ويرى بعض المعاصرين أن الخلق لا يعني الإيجاد من العدم، وإنما هو الإيجاد من شيء. ينظر: الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، ص٤٢٩-٤٣٠، وليس هذا بصحيح، فالمعنيان كلاهما واردٌ ومستعملٌ في كتاب الله عزَّ وجل. ينظر: المفردات

ويُفسِّر بعض المعاصرين هذه المعجزة بقوله: هي «إخصاب بويضة الأنثى بغير مُخْصِب، أو خلق هذه البويضة مُخصبة ابتداء...»[1]، ولهذا كان الأنسب أن تُذْكَرَ المعجزة هنا مقرونةً بالخلق ﴿يَخْلُقُ﴾، دون أيّ لفظ آخر.

وهكذا نرى أن هاتين الحالتين كانتا مختلفتين في الغرابة، ولهذا آثر القرآن في الحالة الأولى التعبير بلفظة﴿يَفْعَلُ﴾ ؛ «إذْ العادة جرت أن الفعْل يُسْتَعْمَل كثيراً في كل ما يحدث على النواميس المعروفة، والأسباب الكونية المألوفة»[2]، كما آثر في الحالة الأخرى التعبير بلفظة﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأن «الخلق يُقَال فيما فيه إبداعٌ واختراعٌ، ولو بغير ما يُعرف من الأسباب»[3]، وهكذا جاء اختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين. وقد استوقفتْ هذه المغايرة الأسلوبية، وخصوصيتها في النص القرآني، أستاذنا الدكتور تمام حسَّان، وحاول تفسيرها تفسيراً آخر يختلف كلياً عما ذُكر، وهو «أن التعبير بلفظ ﴿يَفْعَل﴾ في حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة، لأن زكريا وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة، لأن زوجها بجانبها، وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك، والتسخير والإخصاب من فعْل الله، أما في حالة مريم فإن التعبير بلفظ ﴿يَفْعَل﴾ ربما أثار خواطر سيئة، فاللفظ لهذا غير مناسب، ومن هنا جاء الفعل ﴿يَخْلُقُ﴾»[4].

وقصارى القول: أن هذه الإيحاءات في الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات قد عُني بها النصُّ القرآني أيَّما عناية، فما كان حَسَناً منها ومؤدياً بكل دقة للمعنى المراد توصيله للقارئ أو السامع، اختار له اللفظ

في غريب القرآن، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(١) من إعجاز القرآن(٢/ ٢٢٨).

(٢) تفسير المراغي (١/ ١٥٦)

(٣) نفسه . وينظر: روح المعاني (٣/ ١٦٤)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لأبي يحيى زكريا الأنصاري، ص٨٦، تفسير التحرير والتنوير ، لابن عاشور (٣/ ٢٤٢ و٢٤٩).

(٤) البيان في روائع القرآن ، ص٢٩٧. وينظر: ص٣٢٣.

المناسب الذي لا يمكن أن يقوم غيره مقامه، وما كان عكس ذلك أطّرحه وأهمله[1]. ذلك من جهة، ومن جهة أخرى يستوقفنا -أيضاً- مدى التشابه الواقع بين يحيى وإسحاق -عليهما السلام- ، وزكريا وإبراهيم -عليهما السلام- ، وأمّ يحيى وأمّ إسحاق. فيحيى وإسحاق معجزتهما واحدة، وهي مجيئهما إلى الدنيا وأمُّهما وأبواهما على حالة تحول دون الحمل والولادة، وزكريا وإبراهيم كلاهما شيخٌ كبيرٌ، وأمُّ يحيى وإسحاق كلتاهما عجوزٌ عقيمٌ أو عجوزٌ عاقرٌ.

وقد استخدم القرآن لفظ (عاقر) مع امرأة زكريا ، في حين أنه استخدم لفظ(عقيم) مع امرأة إبراهيم (سارة). يقول عز وجل: ﴿. . . فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[2]. وشيء آخر، هو أن القرآن ذكر في حق امرأة زكريا أن الذي كان يمنعها ويحول بينها وبين الحمل هو داءٌ واحدٌ هو العُقْر، أما امرأة إبراهيم فقد تراوح ذكر المانع لها مرة بين العجز(كبر السن) والعُقْم مجتمعين، حيث قال تعالى: ﴿. . . فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، ومرة أخرى اكتفى بذكر العجز دون العقم، فقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً. . .﴾[3]

وهذا يدعونا إلى التأمل وطرح السؤال التالي: هل العُقْر والعُقْم شيءٌ واحدٌ، ومعناهما واحدٌ؟ أو أنهما شيئان مختلفان؟وإن كانا ذَوَي دلالة واحدة، فلماذا استخدم القرآن لفظ(عاقر) في مواضع ثلاث، واستخدم

(١) جعل الإمام الخطابي (٣٣٨هـ) مناط البلاغة في النص القرآني وإعجازه البياني قائماً على وقوع اللفظ في مكانه، فإذا أبدل فسد معناه، أوضاع الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٢٩.
وقد أيدت الدكتورة عائشة عبدالرحمن(بنت الشاطئ) -رحمها الله- هذه الفكرة في جوهرها العام ، وإن اختلفت معها في بعض مناحيها، وأودعتها في كتابها «الإعجاز البياني للقرآن»، كما كان ذلك جزءاً من تلك الدراسة الأسلوبية التي أقامها أستاذنا الدكتور تمام حسان للنص القرآني في كتابه«البيان في روائع القرآن».

(٢) سورة الذاريات: الآية ٢٩

(٣) سورة هو : الآية ٧٢

لفظ(عقيم) في موضع واحد؟

وللإجابة على الشقّ الثاني من السؤال أقول: إن القرآن آثر استخدام لفظ(عقيم) ، وتأخيرها، لاعتبارين متلازمين -فيما أرى- ، أحدهما مراعاة الفاصلة القرآنية، أو رؤوس الآيات-كما يسميها الفرّاء(٢٠٧هـ)[(١)]، والآخر مراعاة مقتضى المعنى.

فأمّا الاعتبار الأول، فالفاصلة في سورة الذاريات تنتهي بحرف النون في أغلب الآيات، وبحرف الميم في بعضها الآخر، وكلاهما -كما هو مُقرَّرٌ في علم الأصوات- مجهورٌ ، متوسطٌ بين الشدة والرخاوة، مُرَقّقٌ ، منفتحٌ، مَغْنُونٌ (أنفي)، فجاءت الفاصلة بين حروف متقاربة، ولم يكن ممكناً وضع(عاقر) بدلاً من (عقيم) ، كما لم يكن ممكناً تقديم لفظ (عقيم) على لفظ(عجوز)؛ لتناسب رؤوس الآي.

وأمّا الاعتبار الآخر، فبيانه أن العجز قُدِّم هنا-وهو وصفٌ طارئ عليها -على العُقْم- وهو وَصْفٌ لازمٌ لها- ، فكأنها قدَّمت سبباً حاضراً يمنع من الحمل على سبب ماض، أو بعبارة أخرى كأنها أضافت مانعاً متجدداً إلى مانع ثابت، من باب زيادة المبالغة في استبعاد حصول الشيء واستحالته، والتعجُّب من حدوثه لوحدث.

ولذلك ورد في موضع آخر من القرآن على لسان زوج إبراهيم أنها قرنت عجزها بشيخوخة بعلها، حيث قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً...﴾[(٢)] فتُنُوسي هنا ذكر العُقْر، وجُعل كِبَر سنِّهما مانعاً قوياً من حدوث الحمل.

---

(١) ينظر: معاني القرآن(٣/ ٢٦٠، ٢٧٤). مراعاة الفاصلة القرآنية عدّها الزركشي والسيوطي وغيرهما من العلماء أحد أسباب وأسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم. ينظر: البرهان (٣/ ٢٧٤)، والإتقان(٢/ ٢٠). وللمزيد حول هذه المسألة ينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد العامري، ص١١٤، فما بعدها، الإعجاز البياني للقرآن ، ص٢٣٣٥ فما بعدها.

(٢) سورة هود : الآية ٧٢

ويُذكّرنا تقديم العجْز على العُقْم هناك بالمريض الذي لا يُرجى برء مرضه، وحينما يحدث له عارضٌ آخر فإن الأطباء يُوجِّهون جهودهم لعلاج ما استجد من مرض، ويتركون ما عداه؛ لاقتناعهم بأن ما يكون أولى مما كان، وبخاصة أن ما كان هو عندهم في حكم الميئوس شفاؤه، فيؤثرون معالجة ماجدّ على ما قدُم.

ويلاحظ أن لفظ (عجوز) جاء على وزن(فعول)، وهو بمعنى «فاعل»، أي أنها عاجزةٌ عن المجئ بولد وهي في هذه السنّ المتقدمة. أما لفظ(عقيم) فعلى وزن(فعيل)، وهو بمعنى «مفعول»، أي أنها معقومة الرَّحِمِ لا تلد.

ونعود لنحاول الإجابة على الشقّ الأول من السؤال السابق، فنقول: إن مادة(عقم) في اللغة تدل -كما يذكر ابن فارس- على غموض، وضيق، وشدة[1].

ومن المعنى اللُّغوي لهذه المادة اشتق أو استُعير -كما يقول الزمخشري-[2] عُقْم المرأة والرجل، وهما اللذان لا يولد لهما، وعُقم الملك: وهو قتل الرجل لابنه، أو الابن لأبيه، إذا خافه على الملك، والدَّاء العُقام: الذي لا يُرْجى البُرْء منه، والكلام العُقْمي: أي العويص الذي لا يُعرف وجهه، والعقل العقيم: الذي لا يجدي على صاحبه شيئاً، والريح العقيم: التي لا تُلقح شجراً، ولا تُنشئ سحاباً، ولا تحمل مطراً ... إلخ[3].

وسبق لنا القول إن الجذر اللغوي للفظ (عقيم) ورد في موضعين من القرآن الكريم ، أحدهما كان وصفاً للريح التي أرسلها الله على قوم عاد،

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٧٥)(عقم)

(٢) أساس البلاغة (٢/ ١٣٤)(عقم)

(٣) ينظر : العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (١/ ٢١٠-٢١١)، الصحاح، للجوهري (٥/ ١٩٨٨) ، لسان العرب ، لابن منظور (١٢/ ٤٢١)(عقم).

والموضع الآخر كان وصفاً ليوم القيامة أو يوم بدر -كما ذكر ذلك المفسرون-[1].

وهكذا نرى أن هذه المادة اللغوية تدل أصلاً واستعارةً على الشيء الذي لا فائدة فيه، ولا ثمرة له. والعقيم من النساء التي لا تلد، والعُقْم وصفٌ للرَّحِمِ الذي لا يعطي الولد، أو كما يقول أصحاب المعاجم: العَقْم -بفتح العين- والعُقْم- بضم العين- هَزْمَةٌ تقع في الرَّحِمِ فلا تقبل الولد، والرَّحِم المعقومة -كما يذكر الكسائي-: المسدودة التي لا تلد.[2]

وهذا اللفظ مما يستوي فيه المذكر والمؤنث فيقال: امرأةٌ عقيمٌ، ورجلٌ عقيمٌ، يقول سيبويه: «وأما فعيل إذا كان في معنى مفعول، فهو في المذكر والمؤنث سواء»[3]، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿...وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً﴾ شاملاً للاثنين الرجل والمرأة، وذلك ما أكده العلم الحديث، فالعُقْم مرضٌ يصيب الرجال والنساء على حد سواء، وليس كما كان يُعْتَقَدُ قديماً من أنه خاصٌ بالنساء دون الرجال. وهو من الوجهة الطبية «عدم القدرة على الإلقاح، بالرغم من إمكانية الرجل على ممارسة العملية الجنسية»[4].

ويُعَدُّ عُقْم الرجال من الأمور الصعبة، حيث قد بلغت نسبة نجاح

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي(١٢/ ٨٧)، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للدامغاني، ص٣٣٠، معجم ألفاظ القرآن الكريم، أمين الخولي، (٤/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) ينظر: الصحاح(٥/ ١٩٨٨)، لسان العرب (١٢/ ٤١٢)، معجم مقاييس اللغة(٤/ ٧٥)(عقر).

(٣) الكتاب (٣/ ٦٤٧). وينظر: غريب القرآن وتفسيره، لليزيدي، ص٣٤٩، فعلت وأفعلت، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: د. خليل إبراهيم العطية، ص١٣٣، الريح، لابن خالويه، تحقيق: د. حسين محمد شرف، ص٥٠ ما اتفق لفظه واختلف معناه، لابن الشجري، ص٢٥٢.

(٤) العقم عند الرجال والنساء، د. سبيرو فاخوري، ص٣٦. انظر: أطفال الأنابيب بين العلم والشريعة، ص٢٨.

علاجه -كما تذكر بعض الدراسات الإحصائية- (١٥٪) في حين أن عُقْم النساء وصلت نسبة نجاح علاجه إلى (٥٠٪)[١].

أما مادة(عقر) في اللغة، فقد ذكر ابن فارس أن لها أصلين «متباعد ما بينهما، وكل واحد منهما مُطَّرد في بابه، جامع لمعاني فروعه. فالأول: الجرْح، أو ما يشبه الجرْح من الهزْم في الشيء، والثاني دال على ثبات ودوام»[٢]. وأصل العَقْر في اللغة قطع الرِّجل، فكأنه قطع الولادة.[٣]

وعُقر المرأة يعني أن رَحِمَها يعقد ماء الرجل، أو هو عجزها عن تقبل مَنِّي الرجل. وذلك ما يمكن تفسيره في الطب الحديث بأن حموضة المهبل تقتل الحيوانات المنوية بصورة غير اعتيادية، أو وجود تضاد بين خلايا المهبل والحيوانات المنوية مما يؤدي إلى موتها، أو أن إفرازات عنق الرحم تعيق ولوج هذه الحيوانات[٤].

وتتعدد معاني هذه المادة في المعاجم اللغوية[٥]، ولكن هذا التعدُّد الدلالي لا يكاد يخرج عن الأصلين الذين ذكرهما ابن فارس في «المقاييس»، وقد تقدم ذكرهما، والذي يهمنا في هذا الباب هو عُقْر النساء الذي عليه مدار حديثنا. وهذا اللفظ مما يستوي فيه المذكر والمؤنث أيضاً، فيقال: رجلٌ عاقرٌ، وامرأة عاقرٌ.[٦]

---

(١) ينظر: العقم وعلاجه، د. نجم عبدالله عبد الواحد، ص ٩١.

(٢) معجم مقاييس اللغة(٤/ ٩٠) . وينظر : النوادر ، لأبي مسحل الأعرابي(١/ ٣٩٧-٣٩٨)، الاشتقاق ، لابن دريد، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٣) شرح الفصيح، لابن هشام اللخمي، ص٧٢، شرح الفصيح، للزمخشري(١/ ١١٩)

(٤) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي البار، ص٥١٨، وينظر : روعة الخلق -أسرار كينونة الجنين، ترجمة : ماجد طيفور، ص١٧٦.

(٥) ينظر: العين (١/ ١٧٠-١٧٣) ، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٩٠-٩٦) ، أساس البلاغة (٢/ ١٣٢)، لسان العرب (٤/ ٥٩١)، تاج العروس(١٣/ ٩٨)(عقر).

(٦) ينظر: غريب القرآن وتفسيره، لليزيدي، ص١٠٤، فعلت وافعلت، للسجستاني، ص١٣٣، الزاهر ، لأبي بكر الأنباري، تحقيق : د.حاتم الضامن (١/ ٥٨٢)،

وقد سبق القول إن الجذر اللغوي لهذه اللفظة جاء في خمسة مواضع من القرآن الكريم، كلها وصفٌ لما فعله قوم صالح-عليه السلام- بناقة الله من ذَبْح ونَحْر لها. والمتأمل للجذر اللغوي لكلٍّ من (عقم) و(عقر) ، يجد أنه ثلاثي الأصل، رغم ما قد يبدو فيه من ثنائية.

وتفسير هذه الثنائية أن هاتين اللفظتين أصلهما العين والقاف (عَقّ)، الذي ذكرت معاجم اللغة وما جرى مجراها أنه يدل على الشق، والخرْق، والحفر، والقطع[1]. وسبق أن ذكرنا الدلالة الأصلية (المركزية بتعبير المحدثين) لهاتين اللفظتين، التي تتفق إلى حد كبير مع الدلالة العامة لمادة (عَقّ).

ولعل هذا ما دعا أحد الباحثين المعاصرين إلى القول بثنائية الجذر اللغوي لمادة (عقم) ، وذلك بعد أن لاحظ وجود علاقة معنوية تربط بين الثنائي المضعّف والثلاثي المشترك معه في حرفين.[2] والواقع أن هذه النظرة، بالرغم مما قد يبدو من منطقيتها في هذا المقام، لا تستقيم في كل مادة من مواد اللغة، وهذا ما يحملني على القول بثلاثة الجذر اللغوي لهاتين اللفظتين.

وقد وردت هاتان اللفظتان-إحداهما أو كلتاهما- في مؤلفات غريبي القرآن والحديث، مقرونتين بالمعاني المتعددة لهما ، وكذلك في مؤلفات التصويب اللغوي، وبخاصة فصيح ثعلب والشروح التي عليه. كما وردنا

شرح الفصيح، لابن هشام اللخمي، ص٧٢، المفردات في غريب القرآن ، ص٥١١.

(١) ذكر الخليل بن أحمد أن أصل العقّ الشقّ، وإليه يرجع عقوق الوالدين، وهو قطعهما؛ لأن الشقّ والقطع واحدٌ . العين(١/ ٧٢). وينظر :معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣) ، إصلاح المنطق، لابن السكّيت، ص٢٣٦، الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (٣/ ١٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر(٣/ ٢٧١).

(٢) ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية، د.أمين فاخر، ص٢٠٢-٢٠٣. وينظر ما ذكره الأب مرمرجي الدومنكي عن علاقة الجذر الثنائي(عق) بمادة(عقل)، في كتابه: هل العربية منطقية، ص١٢٥-١٣٠.

في المؤلَّفات الخاصّة بالأفعال ، من حيث ضبطُ فعليهما، ومصادرهما، ومعانيهما[1].

وقد تبين لي فيما اطلعت عليه من تلك المصنفات أن العلماء جمعوا بين هاتين اللفظتين في المعنى واشتراكهما في الدلالة الواحدة.

فهذا الخليل بن أحمد يذكر أن العَقْر: هو العُقْم، والذي يعني استعقام الرحم، وهو ألا تحمل[2].

ويؤكد هذا المعنى صراحةً أبوبكر السجستاني (٣٣٠هـ)، حيث يقول: «عاقر وعقيم: بمعنى واحد، وهي التي لا تلد، والذي لا يولد له»[3].

وذكر ابن فارس (٣٩٥هـ) أنهم «يقولون: لقحت الناقة عن عقر، أي بعد حيال، كما يقال عن عُقْم»[4].

وذكر أبو سهل الهروي (٤٣٣هـ) أن لفظة العاقر «مثل العقيم سواء، وهي التي لا تحبل ولا تلد»[5]، كما ذكر الزمخشري(٥٣٨هـ) أنه يقال «للمرأة العاقر معقومة، كأنها مسدودة[6] الرحم»[7] ، وفسَّر أبو حيان

---

(١) ينظر : الأفعال ، لابن القوطية، ص١٥ ١٩٢، ١٩٣، الأفعال ، للسرقسطي(١/ ٢٩٤)

(٢) العين (١/ ١٧٠)

(٣) غريب القرآن، ص١٤٠. وينظر : العمدة في غريب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي، ص٩٩ ، ٢٨٢.

(٤) معجم مقاييس اللغة(٤/ ٩٢)(عقر)

(٥) التلويح في شرح الفصيح، تحقيق: د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص١٥، وينظر: شرح الفصيح، لابن الجبان، ص١٢٦.

(٦) وردت هذه الكلمة في الكتاب المطبوع «مشدودة»-كذا- بالشين، وهو تصحيفٌ، والصواب ما اثبتُ.

(٧) الفائق في غريب الحديث(٣/ ١٦)

الأندلسي(٧٤٥هـ) لفظ عاقر بقوله: «عقيم لا يلد ولا يولد له»[١].

وهكذا يبدو لنا من خلال هذه النصوص مدى اتفاق هاتين اللفظتين واتحادهما في الدلالة اللغوية، المعجمي منها والوظيفي، الأمر الذي يجعلنا نستنتج منه مبدئياً أن هذين اللفظين يُعدَّان من الألفاظ المترادفة في العربية! . ولم تكن المعاجم الحديثة بعيدةً عن هذا التصوُّر ، فهي تُسَوِّي بينهما أيضاً في المعنى[٢].

على أن هناك بعض العلماء الذين ألَّفوا في المشترك اللفظي(Homonymy) أورد هذين اللفظين على أن كل واحد منهما مما يتفق لفظه ويتعدد معناه[٣] ، وهذا يعني أنهما يقفان في الواقع اللغوي على النقيض من الاعتبار أو التصوُّر السابق.

ومن المقرر في الدراسات اللغوية الحديثة أن قياس درجة التطابق(Range of application) بين الدلالتين المركزية والهامشية من خلال استعمال الكلمة يؤدي إلى وضوح الفرق بينهما، ومن ثَمَّ الحكم عليها بأنها من المترادفات أو لا . فإن كان التطابق تاماً بين الألفاظ أو الكلمات، بحيث تقبل التبادل أو الاستعاضة بينها في أي سياق، فذلك يعني الترادف

(١) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ص١٨٢. ولمزيد من هذه النصوص التي لا تُفرِّقُ بين دلالة هاتين اللفظتين . ينظر: تصحيح الفصيح، لابن درستويه(١/ ٢٠٩)، أمالي المرتضى(٢/ ٣٧٩)، تدبير الحبالى والأطفال والصبيان . . . ، لأحمد بن محمد البلدي، تحقيق :محمود الحاج قاسم، ص٨٠، الأفعال ، للسرقسطي(١/ ٢٩٥).

(٢) ينظر –على سبيل المثال–: المعجم الوسيط(٢/ ٦٢١) (عقر)

(٣) ينظر: ما اتفق لفظه واختلف معناه، لابن الشجري، ص٢٥٢-٢٥٤، إصلاح الوجوه والنظائر، للدامغاني، ص٣٣٠(لم يرد في هذا الكتاب سوى لفظة «عقيم»).
وقد استعرضتُ ما وصلنا من هذا النوع من التأليف –سواء أكان ذلك خاصاً بالقرآن الكريم، أم بالحديث الشريف، أم بلغة العرب– فلم أجد ذكراً لهذين اللفظين ضمن مواد هذه المصنفات. على أن ينبغي التنبيه إلى أن كتاب ابن الشجري المتقدم يُعَدُّ أوسع ما ألفَ في بابه، كما تبين لي من خلال قراءة مواده اللغوية، وموازنتها بالمؤلَّفات المماثلة له.

الحقيقي (Absolute Synonymy)، وإن كان التطابق غير تام، بحيث يتفاوت استعمال الكلمة من سياق إلى آخر، فهذا يعني شبه الترادف (Near synonymy)[1].

وما قيل هنا يجري على المشترك اللفظي أيضاً، سواء بسواء، «فدرجة التطابق هذه تصلح معياراً في حالات المشترك اللفظي والترادف، بحيث إذا تطابقتا في الدلالة كان هناك ثَمَّة ترادف أو اشتراك، أما إذا لم تتطابقا في الدلالة فليس ثَمَّة ترادف أو اشتراك»[2].

ونحن حينما نتأمل العبارة القرآنية، والمغايرة بين ألفاظها، وإيثار بعض الألفاظ دون بعضها الآخر، ندرك أن وراء ذلك سراً بيانياً، وإيحاءً دلالياً، ووجهاً إعجازياً، يدفع بالباحث إلى تتبعه، ومحاولة الوقوف على فقه أساليبه. وإزاء هذا لا يَتَأتَّى لنا - وإن جاز لغيرنا- أن نُفسر لفظة(عاقر) بـ(عقيم)، أو العكس ونُسَوِّي بينهما في الدلالات، ونغفل ما بينهما من إشارات؛ حيث صنيعُ القرآن يومئ إلى وجود فرق دقيق في المعنى بين اللفظتين، إضافةً إلى أن الحسَّ الراشد - كما يُسَمِّيه أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى-[3] قد لا يقنع بهذا التفسير وهذه التسوية.

وفي ضوء ذلك، فإني أكاد ألمس في استخدام النص القرآني لهاتين اللفظتين أن كلمة(عقيم) ذات مدلول أوسع من كلمة(عاقر) ، فهي أعمُّ دلالة، في حين أن (عاقر) ضَيِّقَةُ الدلالة.

وبيان ذلك أن العُقْم مرضٌ يقع على الجنسين من الرجال والنساء، يوصف به من كان كذلك منهما. وهو في واقعه الطبي إما أن يكون أولياً، بمعنى أن تكون المرأة لا تستطيع الحمل أصلاً، أو أن يكون الرجل في أصله غير مهيئ للإنجاب، لأسباب تتصل بأعضاء التناسل في كل

(١) ينظر: الكلمة-دراسة لغوية معجمية، د. حلمي خليل، ص١٣٢.
(٢) علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، د. فريد عوض حيدر، ص٥٠
(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص٢٢١.

منهمـا، وهذا -كما يذكر أطبـاء العقم-من الصعوبة بمكان عـلاجه إلا عن طريق التلقيح الصناعي أو ما يعرف بطفل الأنابيب.

وإمَّا أن يكون ثانوياً، بمعنى أن يحدث لهما إنجابٌ ثم يفقدا قدرتهما التناسليـة على ذلك ، وهذا أكثـر قابليـة للشـفاء[1]، وفي كل هذا ما يَدُلُّ على عمومية الدلالة في هذه اللفظة.

أما لفظة (عـاقر) فيـظهر لي أنها تُطلَقُ أكـثر ما تطلـق على النساء ، فهي وَصْفـٌ خاصٌّ بهن فحسب.

وهذا التـصـور لم أجـد أحـداً من العلمـاء-فـيـمـا وقع بين يديَّ من مصادر- أشار أو تنبَّـه إليه، سوى بعض المعاصرين المهتمين بتفـسير القرآن الكريم، حيث ذكروا في تفسير قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ..﴾[2] أن العاقر وَصْفـٌ خاصٌ بالنساء ولا يوجد في الرجـال ، ولذا يقال عـاقرٌ ولا يُلبس[3]. مما يعني أنه لفظ وضع خاصـاً لمعنى خاص. هذا شيء، وشيءٌ آخـر أن هذه اللفظة توحي دلالتـها بعدم الإنجاب مطلقاً، واستحالة الحمل والولادة.

وفيـما تقدم نلمـس خصوصـية دلالة هذه اللفظة، وهذا مـا يجعلني أميـل إلى القول بأن هاتين اللفظتين لـيستـا متـرادفتين ترادفـاً تاماً، بحـيث يحمـلان الدلالة نفسها في أي سـياق لغوي، بل هما أقـرب ما يكون إلى شبه الترادف، أو التـرادف غير التام(Incomplete synonymy)، فاللفظتان بينهما تقاربٌ في المعنى إلى درجة الإلباس، دون أن يَتَّحدا فيه.

وهكذا نرى أنه يمكن القول: إن بينهـما عمومـاً وخصوصاً وجـهياً - كمـا يقول المناطقة- فهـما يلتقيـان في المدلول العام، وتنفرد لفظة (عـقيم)

---

(١) أطفال الأنابيب بين العلم والشريعة، ص٣١-٣٨.

(٢) آل عمران: الآية ٤٠.

(٣) ينظر: تفسـير التـحرير والتنوير(٣/ ٢٤٢)، ايسـر التـفاسـير لـكلام العلي الكبيـر، أبوبكر الجزائري(١/ ٣١٣)

بالدلالة الواسعة ، في حين تنفرد لفظة (عاقر) بالدلالة الضيقة، فكل عاقر عقيم ، وليس كل عقيم عاقراً.

وبعد ، فهذا ما اتضح لي في هذه الدراسة الأسلوبية واللغوية للنصِّ القرآني، فإن كان صواباً ما كَشَفَتْ عنه دراستي، أو كان قريباً منه- وآمل أن يكون ذلك كذلك- ، فهو فَضْلٌ من الله ونعمة، وإن كان غير ذلك فحسبي أنني مجتهدٌ في رحاب القرآن، ينشد الحقيقة التي هي ضالة المؤمن، ويبتغي ما عند الله من أجرٍ وثواب.

وأختتم هذه المحاولة التي أقدمها على استحياء إلى المكتبة القرآنية- وأنا أعلم الناس بعجْزي وقلّة بضاعتي-بقول صاحب (مفتاح السعادة): «ولعلَّ العمر لو أُنْفِقَ في استكشاف أسرار القرآن، وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها، لانقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة في القرآن إلا وتحقيقها مُحْوِجٌ إلى مثل ذلك . . . ، وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفد أسرار القرآن»[1].

وهذا كله حقٌّ، فما من كلمة أو لفظة يختارها القرآن إلا وهناك سرٌّ يقف وراء هذا الاختيار، ربما عرفناه فَأخْبَرْنا به، وربما غَمُضَ علينا أو قَصُرَ إدراكنا عنه، بعد أن نكون قد اجتهدنا في تحصيله، وحاولنا الكشف عن مخبوئه وخفيِّه، فلم نستطع الاهتداء إليه، والوقوف عليه.

والله أسأل أن يجعل من محبتي لكتابه،ورغبتي الجامحة في إدراك دلائل مفرداته وألفاظه،سبباً في تجنيبي خَطَلَ الرأي،وسطحية التأمل، ومزالق التأويل،وزلّة القلم،إنه وليُّ ذلك والقادر عليه،والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) مفتاح السعادة، لطاش كبرى زاده(٣/ ١١٣)

مصادر البحث ومراجعه

* القرآن الكريم.

١ - الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٩١١هـ)، ط٤، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

٢ - أساس البلاغة ، لأبي القاسم جار الله الزمخشري(٥٣٨هـ)، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤١هـ -١٩٢٣م.

٣ - الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد(٣٢١هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.

٤ - إصلاح المنطق، لابن السكيت (٢٤٤هـ)، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.

٥- إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لأبي عبدالله محمد بن علي الدامغاني(٤٧٨هـ)، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م (نُسِبُ خطأ إلى الحسين بن محمد الدامغاني).

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٧- أطفال الأنابيب بين العلم والشريعة، زياد أحمد سلامة ، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٨- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبدالرحمن(بنت الشاطئ) ، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م

٩- الأفعال، لابن القوطية(٣٦٧هـ) ، تحقيق : علي فودة، ط١، مطبعة مصر، ١٩٥٢م.

١٠- الأفعال، لأبي عثمان السرقسطي، تحقيق د.حسين محمد شرف، مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.

١١- أمالي المرتضى(غرر الفوائد ودرر القلائد)، للشريف المرتضى على بن الحسين(٤٣٦هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
١٢- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، ط٤، راسم للدعاية والإعلان، جدة، السعودية، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
١٣- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (٧٩٤هـ) ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
١٤- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد حسنين أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
١٥- البيان في روائع القرآن -دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.
١٦- تاج العروش من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي (١٣٠٥هـ)، الجزء الثالث عشر، تحقيق: د. حسين نصار، وزارة الإعلام، الكويت، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
١٧- تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، لأحمد بن محمد بن يحيى البلدي، تحقيق: د.محمود الحاج قاسم محمد ، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.
١٨- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩م.
١٩- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٦٥هـ -١٩٤٦م.
٢٠- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي (١٣٧١هـ)، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د.ت «نسخة مصورة».
٢١- التقديم والتاخير في القرآن الكريم ، حميد أحمد عيسى العامري، ط١، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٩٦م.
٢٢- التلويح في شرح الفصيح، لأبي سهل محمد بن علي الهروي (٤٣٣هـ)، ضمن كتاب (فصيح ثعلب والشروح التي عليه)، تحقيق: د.محمد عبدالمنعم خفاجي، ط١، مكتبة التوحيد، القاهرة، ١٣٦٨هـ -

١٩٤٩م.
٢٣- التوحيد البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
٢٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرُّماني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٣٨٨٧هـ ١٩٦٨م.
٢٥- ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية، د.أمين فاخر، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
٢٦- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي.
٢٧- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي البار، ط٥ الدار السعودية للنشر، جدة، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
٢٨- الدر المصون في علوم الكتاب العزيز، لأحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي(٧٥٦هـ) تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، ط١، دار القلم ، دمشق، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
٢٩- روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي (١٢٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت ، لبنان، د.ت.
٣٠- روعة الخلق- أسرار كينونة الجنين، ترجمة: ماجد طيفور، ط١، الدار العربية للعلوم ، بيروت، ١٤١٢هـ -١٩٩١م.
٣١- الريح ، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه(٣٧٠هـ)، تحقيق: د. حسين محمد شرف، ط١، مكتبة إبراهيم حلبي العلمية، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
٣٢- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي عبدالرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤م-١٩٦٨م=١٣٨٤هـ-١٣٨٨هـ.
٣٣- الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري(٣٢٨هـ)، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٣٤- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني(٢٧٥هـ)، تعليق :عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، ط١، دار الحديث للطباعة

والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ -١٩٦٩م.
٣٥- سنن النسائي(٣٠٣هـ) بشرح السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، د.ت.
٣٦- شرح الفصيح، للزمخشري، تحقيق: د. إبراهيم بن عبدالله بن جمهور الغامدي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ.
٣٧- شرح الفصيح، لابن هشام اللخمي(٥٧٧هـ)، تحقيق: د.مهدي عبيد جاسم، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
٣٨- شرح الفصيح في اللغة، لأبي منصور ابن الجبان، تحقيق: د.عبدالجبار جعفر القزاز، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م.
٣٩- العقم عند الرجال والنساء-أسبابه وعلاجه، د. سبيروفاخوري، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
٤٠- العقم وعلاجه، د. نجم عبدالله عبدالواحد، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
٤١- علم الدلالة -دراسة نظرية وتطبيقية، د.فريد عوض حيدر، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٤٢- العمدة في غريب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي(٤٣٧هـ)، تحقيق: د.يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
٤٣- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق: د. عبدالله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.
٤٤- غريب الحديث -المجلدة الخامسة، لأبي إسحاق إبراهيم الحربي(٢٨٥هـ)، تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم العايد، ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
٤٥- غريب القرآن، لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني(٣٣٠هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٨٢هـ -١٩٦٣م.
٤٦- غريب القرآن وتفسيره، لأبي عبدالرحمن بن عبدالله بن يحيى

اليـزيدي(٢٣٧هـ)، تحقـيق: محـمـد سليم الحاج، ط١، عـالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
٤٧- الفائق في غـريب الحديث، للزمـخشري، تحـقيق:علي مـحمد البـجاوي ومحـمد أبوالفـضل إبراهيم، ط٢، عيـسى البابي الحلبي، القـاهرة، سنة الإيدزاع١٩٧١م.
٤٨- فـتح الرحـمن بكـشف مـا يلتـبس في القـرآن، لأبي بـكر يحـيى زكـريا الأنصاري، تحقـيق : الشيخ محمد علي الـصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٤٩- فعلت وأفـعلت ، لأبي حاتم السجـستاني (٢٥٥هـ)، تحـقيق: د. خليل إبراهيم العطية، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٧٩م.
٥٠- قاموس القرآن = إصلاح الوجوه والنظائر.
٥١- الكتاب، لـسيبـويه(١٨١هـ)، تحقـيق: عبدالسـلام هارون، ط٢، الهيـئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
٥٢- الكتاب والقـرآن -قراءة معـاصرة-، د.مـحمد شـحرور، ط٦، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م.
٥٣- الكشاف عن حـقائق غوامض التنزيل، للزمـخشري، تصحـيح:مصطفى حسين أحمد، ط٢، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٧٣هـ -١٩٥٣م.
٥٤- كشف المعـاني في المتشابه عن المثـاني، لبدر الدين بن جمـاعة(٧٣٣هـ)، تحـقـيق : د.عـبدالجـواد خلف، ط١، منشـورات جـامـعـة الدراسـات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
٥٥- الكلمة -دراسة لغـوية معجميـة، د. حلمي خليل، الهيئة المصـرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠م.
٥٦- لســان العــرب، لابن منظور(٧١١هــ)، دار صــادر، ودار بيــروت، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
٥٧- ما اتفق لفظه واختلف معناه، لابن الشجري هبة الله بن علي (٥٤٢هـ)، تحقـيق: د. عطية رزق، ط١، دار المناهل، بيـروت، لبنان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م. (سلسلة النشرات الإسـلامية التي تصدرها جـمعية المسـتشرقين الألمانية).
٥٨- معاني القرآن، لأبي زكريا يحـيى بن زياد الفرّاء (٢٠٧هـ) الجزء الثالث،

تحقيق: د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
٥٩- معجم ألفاظ القرآن الكريم، الجزء الرابع، إعداد : أمين الخولي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
٦٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
٦١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس(٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٩هـ -١٣٧١هـ.
٦٢- المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى وزملاؤه، مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٣٨١هـ -١٩٦١م.
٦٣- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، تحقيق: كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٨م.
٦٤- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني(٥٠٢هـ) أعدَّه للنشر: د. محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة الإيداع ١٩٧٠م.
٦٥- من إعجاز القرآن -العلم الأعجمي في القرآن مُفَسَّراً بالقرآن، رؤوف أبوسعدة، دار الهلال، القاهرة، سنة الإيداع ١٩٧٣م-١٩٧٤م.
٦٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ -١٩٦٣م.
٦٧- كتاب النوادر، لأبي مسحل الأعرابي، تحقيق: د. عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٠هـ -١٩٦١م.
٦٨- هل العربية منطقية- أبحاث ثنائية السنية، للأب أ. س. مرمرجي الدومنكي، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه، لبنان، ١٩٤٤م.